شخصية المرأة في رواية "وا إسلاماه" لعلي أحمد باكثير

محمد توحيد عالم *

الملخص

يتناول هذا البحث موضوع المرأة في رواية "وا إسلاماه" لعلي أحمد باكثير وهو موضوع مهم شغل بال كثير من الأدباء والمفكرين، واهتم بها الشعراء في قصائدهم والروائيون في رواياتهم وقد عبّروا في صور عدة في أعمالهم. بدأ البحث بمقدمة عن موضوع المرأة في مجال الأدب العربيّ وأثرها في الدراسات الأدبيّة، ونصيبها في الرواية العربيّة، وأهمّيّتها في المجتمع، وكيف استخدمها الأدباء في التعبير عن مختلف تصوراتهم وأفكارهم، ومنطلقاتهم الفكريّة باعتبارها جزء من المجتمع، ثم تناول البحث حياة الكاتب في بضعة سطور، وملخّصا وجيزا لرواية "وا إسلاماه"، ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على شخصيّة المرأة في رواية "وا إسلاماه"، لأنّ المرأة في كتابات علي أحمد باكثير الشعريّة والنثريّة موضوع هامّ، وقد عالج الكثير من القضايا الإسلاميّة في روايته ومنها قضايا المرأة التي احتلّت حيّزا كبيرا فيها، ويرى أنّ للمرأة دورا إيجابيّا في الجهاد، ويسعى البحثُ الكشف عن نظرته لشخصيّة المرأة وكيف تفاعل مع قضايا المرأة، وعرض الملامح الفكرية عنده في شخصيّة المرأة. واخترت رواية وا إسلاماه لهذا الموضوع، سأحاول إبراز صورة من صور المرأة تختلف عن كثير من الصور التي رأيناها في أعمال أدبية أخرى. وسنحاول أنْ نعرض هذه الصورة على النظرة الإسلاميّة كما كانت الرواية التاريخيّة الإسلاميّة. ثم اختار الباحث المرأتَيْن فقط وهما جهاد أو جلنار وشجر الدر، ولم يذكر بقيّة منها، ثم البحث متبوع بالخاتمة.

الكلمات المفتاحيّة: باكثير، جلنار، الرواية العربية، شجرة الدر، شخصية المرأة، وا إسلاماه.

* باحث في الدكتوراه، قسم اللغة العربية، جامعة غوربنغا، مالده، بنغال الغربية، الهند
البريدالإلكتروني: ttdalam@gmail.com

مقدمة

كان موضوع المرأة في ميدان الأدب من أهمّ المواضيع التي تطرح على ساحة الفكر، وشغلت بال الكثير من المفكرين والأدباء، واهتمَ بها الشعراء في قصائدهم والروائيّون في رواياتهم وقد عبّروا في صور عدّة في أعمالهم. قالت مفقودة صالح: "أما وجود المرأة في ميدان الأدب فيحتلّ مساحة كبيرة، فقصائد الشعر العربيّ تنوء بوصف النّساء، ولوحات الرسامين تعتمد على هذا الموضوع وكذا الأفلام والإشهار، وأسواق المتعة. فالمرأة جزء لا يتجزأ من حفلات المجتمعات الراقية ومن عروض الأزياء، ومن النوادي المتخصصة للقمار وغيرها من المنشآت السياسية"[1].

إن الأدب يلعب بمختلف أنواعه وأشكاله دورا هاما في تشكيل صورة المرأة، لأن هناك أهمّيّة كبيرة لصورة المرأة في المجتمع، هي توجد داخل المجتمع الذكوريّ وخارجه، وهي عضو مهمّ في هذا المجتمع، فالمرأة عنصر بارز في جميع ميادين الحياة سواء أكان شعرًا أم نثرًا أم إشهارًا، فهي عنصر أساسيّ لافت للانتباه قد تبين حضورها في الرواية العربيّة وأصبح لها نصيب منها، وأصبحت المرأة محورا من المحاور التي استخدمها الأدباء في رسم صورتها للتعبير عن مختلف أفكارهم وتصوراتهم، كما أنها تمثل منطلقا فكريّا للبوح عن مختلف همومهم وواقعهم الاجتماعيّ والاقتصاديّ، وكذلك القضايا الإنسانيّة المختلفة، فإنّ المرأة هي الجزء الأساسيّ لا ينفصل بأيّ حال من الأحوال من كيان المجتمع الكليّ، تمثل مثالا وصورة رمز للشجاعة والبطولة والتضحيّة، واتصفت المرأة بالشجاعة والحكمة والقدوة والوفاء والصدق والثقة والتضحيّة والإيثار، وعلى هذا فإنّ المرأة قد أصبحت بمثابة رمز فنّيّ يحمل عديد من المعانيّ والدلالات، وأثّرت المرأة في القلوب والعقول فكانت بمثابة الأم والأخت والحبيبة والزوجة.

فقد شغلت المرأة مساحةً واسعةً في سياق الأعمال الأدبيّة سواء كانت قصة أم مسرحية، وقد حظيت في الروايات العربيّة بحضور مستوياتها، فقضيّة المرأة ودورها الحسّاس في

1 . الدكتورة مفقوده، صالح: المرأة في الرواية الجزائرية (الجزائر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الطبعة الثانية، 2009م) ص 9.

المجتمع ما زال قائما ومتجدّدا على مرّ العصور، فقد تبارى الأدباء في رسم صورتها، واستقطبت محورا من المحاور المستخدمة في التعبير عن مختلف تصوراتهم وأفكارهم، ومنطلقاتهم الفكرية باعتبارها جزءً من المجتمع.

والمرأة في الرواية تحتلّ نصيبا أوفى وأوفر، وكذا الشأن في الدراسات الأدبية والاجتماعية. ومع كثرة الدراسات المقدمة عن المرأة سلبا وإيجابا، فإن تلك الدراسات والبحوث الاجتماعية، تجري في أماكن أخرى بحيث تكاد تقتصر تلك الأبحاث حول النساء في المدن فالدراسات تجري غالبا في محيط غير بعيد عن الجامعات ومراكز التعليم، ومعظم أحكامنا نبنيها على معرفة بشرائح من نساء المدن[2].

ومن هنا نعرف أن المرأة تعتبر عنصرا هامّا من عناصر العمل الأدبيّ وإذا أنكرنا شيئا فإنّما ننكر ما يعمد إليه كثير من الأدباء من جعل المرأة رمزا للذة الجسد الرخيصة، علما بأنّ الجنس لا يمثل إلا جزءا صغيرا من كل كبير ولا يجوز أن يطغي ذلك الجزء على هذا الكلّ.

عالج باكثير في أعماله الأدبية بشكل عام الكثير من القضايا الإسلامية ومنها: قضايا المرأة في أعماله الأدبيّة بشكل عام، قدّم باكثير نماذج مشرقة للمرأة في أدبه، وأنزلها منزلة لم ينزلها إياها أحد غيره من الكتاب، تناول عالم المرأة بوصفها نصف المجتمع، فهي الأم والبنت والأخت والزوجة وغيرها فدورها ركيزة أساسية في الحياة وظروفها المعقدة، فتلمس باكثير مواقفها بين القبول بالواقع والاستسلام له وبين التمرد والرفض. ولم يقتصر باكثير على إبراز المرأة في صورة مشرقة في الأعمال التي يبدعها ويؤلفها فحسب، بل نراه يعمد إلى قصص التاريخ والأساطير فإذا وجد في بعضها نيلا من قدسية المرأة أو موقفا سلبيا تجاهها شرع يعيد كتابة تلك القصص معيدا للمرأة اعتبارها ومكانتها مصححا خطأ التاريخ أو معيدا تفسير الأسطورة[3].

---

[2] . الدكتورة مفقوده: المصدر نفسه، ص 9.

3 . د. الزبيدي، عبد الحكيم: الكاتب الذي أنصف المرأة (دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة: مجلة الرافد، العدد 6، يونيو 2010م) ص 179.

علي أحمد باكثير

هو علي بن أحمد بن محمد باكثير الكندي، ولد سنة 1910م في جزيرة سوروبايا بإندونيسيا لأبوين عربيين من حضر موت. وفي سنة 1920م، أرسله والده إلى مدينة سيئون في حضر موت لينشأ هناك على العربية وهي عادة للحضارمة المهاجرين. تلقّى هناك تعليمه في مدرسة النهضة العلمية ودرس علوم العربية والشريعة على شيوخ أجلاء. ظهرت مواهبه مبكرا فنظم الشعر وهو في الثالثة عشرة من عمره[4]، وتولى التدريس في مدرسة النهضة العلمية وتولى إدارتها وهو دون العشرين من عمره[5]. عاش باكثير حقبةً زمنيّةً غير قصيرةٍ في حضرموت ثم تنقل بين أطراف اليمن والصومال والحبشة ثم استقر زمنًا في الحجاز والتقى بالملك عبد العزيز آل سعود، وكتب هناك أول مسرحية شعرية " همام أو في بلاد الأحقاف".

وصل باكثير إلى مصر سنة 1934م، ليدرس الفقه في الأزهر، إلا أنه التحق بكلية الآداب قسم اللغة الإنجليزيّة في جامعة فؤاد الأول، وتخرج منها عام 1939م، وخلال دراسته سنة 1936، ترجم مسرحية "روميو وجوليت" لشكسبير بشعر التفعيلة أو كما سماه "الشعر المرسل"، وبعد انتهاء الدراسة فضّل الإقامةَ في مصر حيث أحبّ المجتمع المصريّ وتفاعل معه، وأصبحت صلته برجال الفكر والأدب وثيقة، من أمثال العقاد وتوفيق الحكيم والمازني ونجيب محفوظ وصالح جودت وغيرهم. عمل باكثير بالتدريس خمسة عشر عاما منها عشرة أعوام بالمنصورة ثم انتل إلى القاهرة. زار باكثير عددا من الدول العربية والأجنبية كسوريا، ورومانيا والاتحاد السوفييتي وإنجلترا، توفى في مصر سنة 1969م.

---

[4] . د. حميد، محمد أبو بكر: علي أحمد باكثير النشأة الأدبية في حضر موت (الأدب الإسلامي، 2001م، العدد 29، المجلد 8)، ص 19.

5 . د. الزبيدي، عبد الحكيم: باكثير في سطور، (مجلة الرافد، يونيو 2010م، العدد 6) ص 244.

لقد نشأ علي أحمد باكثير نشأةً عربيةً إسلاميّةً منذ نعومة أظفاره في موطن آبائه حضر موت، حفظ القرآن الكريم في سنّ صغير بمدينة سيئون، وكان شغوفًا بقراءة المتنبي وإمرئ القيس، ودرس الإسلام من ينابيعه الأصليّة دراسة عميقة وافية، "واستقى باكثير فكره الإسلاميّ من ينابيعه الأصليّة، أي: القرآن والسنة، وقد تجلى اتجاهه الإسلاميّ والتزامه بالفكر الإسلاميّ في آثاره الشعريّة والمسرحيّة والروائيّة بصورة واضحة، حيث يصدر فيها عن التصوّر الإسلاميّ ويدعو إلى الفكر الإسلاميّ، ولا يرى في ذلك بأسًا، لأنّه يعتقد أنّ كلّ كاتب لا بُدّ أنْ يكون له فكرة يدعو إليها في عمله الفنّيّ"[6]. هو كاتب إسلاميّ وروائيّ ومسرحيّ بارع وشاعر ماهر. وتنوّع إنتاجه الأدبيّ بين الرواية والمسرحيّة الشعريّة والنثريّة، كما كتب العديدَ من المسرحيّات السياسيّة والتاريخيّة ذات الفصل الواحد وكان ينشرها في الصحف والمجلات السائدة آنذاك.

وا إسلاماه

رواية "وا إسلاماه" هي رواية تاريخيّة عربيّة للكاتب علي أحمد باكثير صدرت عام 1945، تتناول فترةً من فترات الدولة الأيوبيّة، وهي الفترة التي انتقل فيها الحكم من الأيّوبيين إلى المماليك، كما تتناول غزو التتار لمدينة بغداد، وتولّى شجرة الدر حكم مصر، ومحاربة قطز للتتار وانتصاره عليهم في معركة عين جالوت.

نرى في هذه الرواية أن الكاتب علي أحمد باكثير تعرض فيها للأحداث التي وقعت في مصر وما حولها، والتي يطل القارئ منها على المجتمع الإسلاميّ إبان غزو التتار للعالم الإسلاميّ في أهم بلاده من نهر السند إلى نهر النيل[7]. يقول الكاتب عن روايته في مقدمتها: هذه قصة تجلو صفحة رائعة من صفحات التاريخ المصريّ في عهد من أخصب عهوده وأحفلها بالحوادث الكبرى والعبر الجلى. يطل منها القارئ على المجتمع الإسلاميّ في أهم بلاده من

6 . د. سرباز، حسن: الاتجاه الإسلامي في روايات علي أحمد باكثير التاريخية (موقع الأديب علي أحمد باكثير، من أبحاث مؤتمر "علي أحمد باكثير ومكانته الأدبية"، القاهرة، 2010) ص 106.

7 . غوري، محمد علي: علي أحمد باكثير رائد الرواية التاريخية الإسلامية في الأدب العربي: وا إسلاماه نموذجا (موقع الأديب علي أحمد باكثير، من أبحاث مؤتمر مئوية باكثير بالقاهرة 2010) ص 205.

نهر السند إلى نهر النيل وهو يستيقظ من سباته الطويل على صليل سيوف المغيرين عليه من تتار الشرق وصليبيّ الغرب، فيهب للكفاح والدفاع عن أنفس ما عنده من تراث الدين والدنيا. ويشاء الله أن تحمل مصر لواء الزعامة في هذا الجهاد الكبير، فتحمي تراث الإسلام المجيد بيومين من أيامها عظيمين كلاهما له ما بعده: يوم الصليبيين في فارسكور، ويوم التتار في عين جالوت[8].

ونرى أيضا في هذه الرواية قصة رائعة لحياة الطفلين محمود وابنة خاله جهاد حفيدي الملك خوارزم شاه، نعم هي قصة حب أمير وأميرة نقلتهما الأقدار من نعيم المُلك إلى أيدي اللصوص، واختطافهما من ابنه الملك جلال الدين في جبال الأكراد، لم يقم محمود وجهاد بجبل الشطار إلا بضعة أيام حتى جاء أحد تجار الرقيق إلى الجبل فعرضوهما عليه بعد تسميتهما قطز وجلنار، فاشتراهما بمائة دينار. ثم بيعهما ثانية للوجيه الدمشقي غانم المقدسي أحد أتباع الشيخ المجاهد ابن عبد السلام، عاشا معا ووعدهما بالعتق والزواج، فمات قبل أن ينجز وعده، بعد بلوغهما سن الرشد كتب عليهما الفراق بعد موت سيدهما، فتفرقا في أيد المالكين، فبيع جلنار من جديد حيث صارت أخيرا إلى قصر شجرة الدر في مصر، وباعدت بينهما البلاد إلى أن جمعتهما الدار يوما ورآها فثار به حبه القديم، وكان زواجهما مع زواج شجرة الدر بالملك عز الدين أبيك، أخيرا تستشهد جلنار وهي تحامي عن زوجها الحبيب في معركة عين جالوت التي انتصر فيها المسلمون على التتار بقيادة الملك المظفر قطز، ولم يعمر بعدها طويلا، فقد ارتاب به قائده بيبرس فأسهم في اغتياله لكنه ندم لما تبين أن الملك المظفر كان ينوي تعيينه ملكا بعده.

وقد حشد الكاتب في روايته كثيرا من الشخصيّات التاريخيّة الحقيقيّة، كما طعمها بشخصيّات أخرى خياليّة، ودفع بها إلى خصم الأحداث الحربيّة والسياسيّة المتأجّجة، على نحو من الصراع الملحميّ الذي لا يخلو من تشويق وإثارة.

نذكر هنا عن شخصيّتين من أهمّ شخصيّات المرأة، أولها جهاد أو جلنار وثانيها الملكة شجرة الدر، بعيدا عن إلقاء النظر في شخصيات أخرى من المرأة.

[8]. باكثير، علي أحمد: **وا إسلاماه** (القاهرة: مكتبة مصر، د. ت) ص 3.

شخصية المرأة في رواية "وا إسلاماه"

نجد رأي على أحمد باكثير في عمل المرأة حينما سُئِل في مجلة الإذاعة والتلفزيون في 1962/11/14م بالقاهرة، والذي يدلّ على أنه يحبّ الثقافة الإسلامية ولا يحبّ دونها.

(س) نفس الاتجاه.. الأساطير!؟ ولكن ما هي فكرتك في مسرحية "الدنيا فوضى"؟!

أجاب: فكرتي هي أنّ فتاة المجتمع الجديد لم تعد أنثى! إنها تعمل.. وتخرج، وتقوم بنشاط كبير، يجعلها تخرج عن حدود أنوثتها.. ثم هي تستخف بالعمل في البيت، وتربية الأولاد، وتظن أن هذه من اختصاص الخدم، وتأكل في المطاعم، وتضع رجلا على رجل، وتشرب السجاير[9]!

وهذا لا يعني أنه عدوّ للمرأة، ويقف ضدّها ومخالف حقوقها، ولكن خروج المرأة إلى الحياة العامة ومشاركتها للرجل في جميع المرافق الاجتماعيّة، وسفور المرأة واختلاطها بالرجل في الحياة العامة، ومؤاكلتها ومشاربتها في المطاعم والمقهى، يعتقد أنّ السفور خطير على الحياة الزوجية المستقرة، وحياة الأسرة، عندما يختلط زوج هذه بزوجة ذاك. يرى باكثير أن للمرأة هدف عظيم في الحياة، وعليها القيام بأعمال البيت والأسرة. ولم يخالف عمل المرأة كما أجاب في سؤال آخر.

(س) وهل من رأيك ألا تعمل المرأة؟ قال: لا ولكن من رأيي ألا يحولها السفور إلى رجل.. ليس من الجميل لها أن تكشف عن كلّ جسمها، وأن تحدد تفاصيله بهذا الشكل (المقرف). إنّ الرجل حتى مع زوجته، لا يحب أن يراها عارية سافرة بهذا الشكل. فما بالها بالغرباء من حولها في الشارع وفي الأتوبيس وفي العمل. ويكفيك هذا المنظر الغربيّ: أن تجلس المرأة في الأتوبيس وقد ظهر ما فوق ركبتيها.. وتظلّ تشدّ الفستان، كأنها (فعلا) ترغب في إخفاء رجليها، ولكنها لا يمكن أن تكون راغبة في هذا، وإلا لأطالت الفستان أصلا.. إنه منظر يغيظ!![10].

[9] . الدكتور حميد، محمد أبو بكر: **علي أحمد باكثير من أحلام حضرموت إلى هموم القاهرة** (الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، الطبعة الأولى، 1997م) ص 66.

[10] . الدكتور حميد: المصدر نفسه، ص 66.

فموقف باكثير من المرأة كان مبنيّا على الأساس الإسلاميّ كما يشرح باكثير رؤيته الواعية للإسلام فيقول: كنت دائما أرى أن الإسلام قوّة روحيّة، ومدنية كبرى، وأنّ الإنسانيّة الحائرة ستظل دائما في حاجة إلى الاهتداء بنوره، وأنّ على كتابنا ألا يستعيروا الإيديولوجيات الأجنبيّة، بل ينظروا إلى الحياة من وجهة النظر الإسلاميّة، ويعبّروا عن واقعهم وأحلامهم من خلالها[11].

جهاد أو جلنار

يرى باكثير أنّ للمرأة دورا إيجابيا في الجهاد، وتمثل جلنار هذه المرأة الإيجابية في الرواية، ونجدها الزوجة المسلمة كما يصورها باكثير. نرى أنّ باكثير يتقدّم في رواية "وا إسلاماه" في رسم شخصيّة المرأة، فيخترع بخياله الخصب شخصيّة جهاد أو جلنار، وهي بنت السلطان جلال الدين، كما يخترع قصة الحب بينها وبين قطز الملك المظفر محمود ابن الأمير ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين، وقد بالغ المؤلف في تصوير مشاعر جهاد نحو قطز وهي طفلة لم تعد السابعة من عمرها[12]، واستمر هذا الوصف النفسي فيما بعد، ولكن المؤلف ركّز على مشاعر قطز، فهو الذي يحزن علي فراقها بعد أن تربت معه، واختطفت معه، وبيعت في سوق الرقيق وأطلق عليها اسم جلنار، تقلّبت بها ظروف الحياة عندما ترحل إلى مصر وهو في دمشق، وعندما ترحل إلى دمشق وهو في مصر، حتى التقت بقطز ثم تزوجته، وهي بطلة القصة، نرى أن الملك المظفر بدأ أن يوطد أركان عرشه، ويدبر ملكه، ويقضي على عناصر الفوضى والاضطراب، ويضرب على أيدي المفسدين والدساسين، ويقبض بيد قاهرة على أزمة السياسة الجامعة، ويعالج الأمراء المماليك، وأن يقوي الجيش، ويضاعف عدده وأسلحته، وخلال هذه الأيام لم يعرف للراحة ولم ينم إلا قليلا، وفي هذه الأيام نجد وظيفة زوجته وحبيبته السلطانة جلنار تدور في خدمة زوجها وتُعِينه وتؤازره وهو يعد العدة لملاقاة التتار: "تشد أزره في ذلك كله، وتشجعه على المضي في هذا السبيل الوعر. فكانت تسهر الليل معه، وتشاطره همومه وآلامه، وتمسح بيديها

[11] . الدكتور حميد: المصدر نفسه، ص 104.

[12] . البابكري، أبو بكر: **روايات علي أحمد باكثير التاريخية مصادرها.. نسيجها الفني.. إسقاطاتها** (موقع الأديب علي أحمد باكثير) ص 146.

الرفيقة شكواه كلما ضاق صدره بتخاذل الأمراء عن طاعته، ونيلهم منه في مغيبه، ونفاقهم له في مشهده، وإلقائهم العواثير في طريقه، وكان ربما أنساه انهماكه في عمله الدائب طعامه وشرابه فعنيت بتقديمهما بنفسها إليه، وإذا نهكه السهر في أعقاب الليل، قامت إليه، فأخذت بيده وقادته إلى فراشه، ليأخذ نصيبه من نومه وراحته، وكانت لا تفتأ تملأ قلبه ثقة بالفوز فيما ندب نفسه للقيام به، فيزداد يقينه ويتضاعف إيمانه"[13].

نرى أنها كانت آملة ومتمنية، وتريد الخروج إلى ساحة الحرب لكي تنظر مصارع الأعداء ومناظر القتال بعينيها، نجد هناك حوار مذهل ومثير للاهتمام بين الحبيبين؛ جلنار والسلطان قطز، تقول هي لزوجه الحبيب: إني سأخرج معك إلى ميدان القتال، لأرى مصارع الأعداء بعيني، فيشفى بذلك صدري"، فيقول لها: أخشى عليك يا حبيبتي من سهامهم، فتقول له: لن أخشى على نفسي ما لا أخشاه عليك، ولكن تطمئن على سأكون وراء الجيش في مأمن من سهامهم وكراتهم"، يقول الملك المظفر قطز: أما تخافين أن يخلصوا إليك أثناء الكر والفر، فتقعي أسيرة في أيديهم؟، تقول جلنار له: أنا ابنة جلال الدين لا يخلصون إلي وجوادي معي ينجو بي منهم، أما تذكر يا محمود أيام كنا نتبارى على جوادينا، فتسبقني حينا وحينا أسبقك[14].

ولا يقتصر دور جلنار في الرواية على هذا، بل إنها قد شاركت في الجهاد بالسيف فنرى وظيفتها في المعركة حماية زوجتها الملك قطز "وكانت السلطانة قد جعلت همها حماية زوجها من الغيلة□، شاركت بالسيف عندما تطلب منها الأمر ذلك حين انكشف المسلمون عن القائد، وهي التي تشعر بغدر الصبيّ التتريّ وهي على جوادها من تل مرتفع خلف السلطان، راقبت حركات الصبيّ التتريّ الذي يخوض صفوف التتار فيقتل منهم ويخلص منها سالما، فلاحظته جلنار، حتى أتى خلفه خمسة فرسان من التتار كالسهم إلى جهة السلطان يريدون قتله، رأتهم جلنار حتى تتلثم وتنزل أرض المعركة: "وكاد الفارس الآخر التتري الآخر يعلو السلطان بسيفه لو لم يبرز له فارس ملثم شغله عن ذلك، فاختلفا

[13]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 184.
[14]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 184.
[15]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 193.

ضربتين بالسيف فخرا صريعين. وصاح الفارس الملثم: صُنْ نفسك يا سلطان المسلمين! ها قد سبقتك إلى الجنة"[16]. ولم يكن هذا الفارس الملثم إلا زوجته جلنار، وهي قد أطارت رأس الصبي التتري قبل ذلك، ولكنها أصيبت بجرح قاتل حتى ماتت.

ولقد مثلت جلنار قمة الشجاعة والتضحيّة حين فدتْ السلطان بروحها، ونرى عمق عاطفة الحب التي جمعت بين قطز وجلنار إلى درجة اندفعت معها للقتال دفاعا عنه واستشهادها دونه، نرى أن جلنار كانت جريحة فأضجعها السلطان قطز علي فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها: وا زوجتاه! وا حبيبتاه!، على الرغم من ذلك الحب، فأحست به ورفعت طرفها إليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهي تجود بروحها في سياق الكلمة التي كانت عنان الرواية ومفتاحها: "لا تقل وا حبيبتاه... قل وا إسلاماه! "[17]، وما لبثت أن لفظت أنفاسها الأخيرة بين يديه.

هكذا رسم باكثير صورة الزوجة الوفية في هذه الرواية، لو أراد باكثير أن يتلاعب بأحداث هذه القصة لوجد فيها مجالا خصبا للإثارة، ولكنه يحمل في ذهنه صورة للمرأة المسلمة والحبيبة الوفيّة والزوجة الصالحة تجعله بعيدا عن العبث بشخصيّتها.

والحقيقة أن هذه تعد نقلة كبيرة بوظيفة المرأة من مجال الغناء إلى ساحات القتال والسياسة، وقد قامت فيهما شجرة الدر بدور كبير.

شجر الدر

عرض باكثير لنموذج شخصية "شجر الدر" زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهي شخصية تاريخية قوية طموحة، كانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودَهَاء، وعقل، ونالت من السعادة مالم يَنَلْه أحد في زمانها[18].

نجد شخصيّة الملكة شجرة الدر في الكتب التاريخيّة مثل كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري" أنها الملكة شجرة الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح

---

[16] . باكثير: **المصدر نفسه**، ص 194.

[17] . باكثير: **المصدر نفسه**، ص 194.

[18] . ابن تغري، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1936م، المجلد السادس) ص 374.

نجم الدين أيّوب وزوجته وأم ولده خليل، وكانت حظية عنده إلى الغاية، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك، ومعها ولدها خليل أيضا، وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمِحن، ثم قدِمتْ معه مصر لما تسلطن؛ وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفّى صغيرا. ولا زالت في عظمتها من الحشم والخدم وإليها غالب تدبير الديار المصريّة في حياة سيّدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبِّرها على أكمل وجه إلى أنْ قَدِم ولدُ زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها تُوران شاه ما فعلته من الإخفاء لموت والده وقيامها بالتدبير أتمّ قيام، حتّى حضر إلى المنصورة وجلس في دَسْت السلطنة. ولم تَدَعْ أحدا يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك تُوران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها، وطلب الأموال منها سرعة، فلم يحسُن ذلك ببال أحد. واتفقوا على ولايتها لحسن سِيرتها وغزيرِ عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعزأيبك التركمانيّ أتابَكًا لها، وخُطِب لها على المنابر بمصر والقاهرة لكنّها لم تلبس خِلْعة السلطنة الْخَلِيفتَي على العادة، غير أنهم بايعوها بالسلطنة في أيام أرسالا وتم أمرها[19].

تولت شجرة الدر حكم مصر بعد وفاة زوجها الملك الصالح أيوب فترة من الزمن، وأنقذت مملكة زوجها من الانهيار عقب وفاته، أخفت موته خوفا من الفرنج، فانقادت السلطنة إليها لما كانت تتميز من صفات سلطوية، " ولّما مات الملك الصالح في شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة على دِمْياط في حِصار الفرنج، أخفت موته وصارت تعلِّم بخطّها مثل علامة الملك الصالح، وتقول: السلطان ما هو طيّب. وتمنع الناس من الدخول إليه؛ وكان أرباب الدولة يحترمونها. ولّما علموا بموت السلطان ملكوها عليهم أيام. وتسلطنتْ بعد قتل السلطان الملك المعظّم ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وخُطِب لها على المنابر، وكان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: "واحفَظ اللهم الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عِصْمة الدنيا والدين أمّ خليل المستعصميّة صاحبة السلطان الملك الصالح[20]. يصورها باكثير في

[19] . ابن تغري: **المصدر نفسه**، ص 373.

[20] . ابن تغري: **المصدر نفسه**، ص 374.

روايته: "وأخذت شجر الدر تدبر الأمور وتصدر الأوامر حتى لم يتغير شيء، إذ بقي الدهليز السلطاني على حاله، والسماط في كل يوم يمد، والأمراء يحضرون للخدمة. وهي تقول دائما "السلطان مريض ما يريد أن يزعجه أحد"[21]، جلست على أريكة السلطنة بإجماع أمراء المماليك الصالحية واتفاق أعيان الدولة وأهل المشورة، فهي شخصية قوية، وكلمتها مسموعة عند رجال البلاط، وتمتد سيطرتها على رجال الدولة، قامت بتدبير مملكتها أحسن قيام، يعاونها في أتابكها عز الدين أيبك وغيره من مماليك زوجها ووزرائه المحنكين وقواده العظام. وهذه المرأة كما تصفها الرواية "فقد كانت شجر الدر لا تزال هي القوة المصرفة من وراء الستر، وكان نفوذها ماضيا على كل الأمراء، ترفع من تشاء منهم وتضع من تشاء... وأيضا أن شجر الدر تحب السلطة وتعشق النفوذ والسيطرة، ولم تعتزل الملك إلا مغلوبا على أمرها، وكانت ترى في نفسها الجدارة للحكم، والكفاية لتصريف الأمور[22].

سيطرت شجر الدر على زمام الأمور بعد موت زوجها، فقامت المملكة بتدبير ملكتها أحسن قيام، ولكن المأزق يكمن في العرف الذي لا يعترف بحكم المرأة، وهي ليست جاهلة بالمناخ الذي تعيش فيه، ومجموعة القيم التي تحكمه، ولكنها تراهن على تميزها وبراعتها كأداة لتحقيق التوازن وتناسي جنسها الذي يثير احتجاج الرجال. وجاء في كتاب البداية والنهاية لابن كثير أنها قد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها المعظم توران شاه، فكان يخطب لها وتضرب السكة باسمها وعلمت على المناشير مدة ثلاثة أشهر"[23].

ثم تنازلت عن الحكم بعد أن استنكر الخليفة العباسي أن تتولى الحكم امرأة، بعث الخليفة كتابا إلى مصر يقول فيه: إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا"[24]، وبعد أن ثار عليها الأيوبيون لمقتل (توران شاه) ابن زوجها، وكانت سببا في إثارة الصراع بين زعماء المماليك أي عز الدين أيبك وأقطاى الذين كانوا يسعون الزواج منها من أجل الوصول إلى حكم مصر، ولما ذهب قطز إلى ملكة شجر الدر رسولا من أستاذه عز الدين

---

[21]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 129.
[22]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 141.
[23]. أبو الفداء ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية** (بيروت: مكتبة المعارف، الجزء 13، الطبعة السابعة، 1988م) ص 199.
[24]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 139.

أيبك، وصرّح لها برغبة سيّده في زواجها، كما في الرواية " قالت له: ارجع إلى أستاذك فقل له إني لا استطيع أن أقيم عرسا وجنود الناصر على أبواب مصر"[25]، رجع قطز إلى أستاذه وأخبره ما قالتْ له، "ففهم عز الدين مما بلغه قطز أن شجر الدر تعده بقبول الطلب بشرط أن يهزم الناصر وجنوده"[26]، نرى في هذه الرواية أن شجر الدر فضلتْ عز الدين مما أثار عليها (أقطاى)، وحرك المؤامرات ضدها وضد زوجها، وأراد الانتقام منها، فأسرعت باستثارة قطز عليه فقتله، ولم تطل العلاقة بين شجر الدر وزوجها، لأنها أخذتْ تسيطر على زوجها السلطان عز الدين، وتتحكم في الدولة مما دفع كلا منهما إلى التخلص من الآخر، وكانت أسرع منه فأمرتْ خدمها بقتله في الحمام، فأسرع مماليكه بالانتقام منها، فقبضوا عليها واعتقلوها في أحد أبراج القلعة ثلاثة أيام، وولوا ابنه سلطانا، فلما استقرت الأمور، أول ما فعل الملك الجديد المنصور أن أمر فحملت شجر الدر إلى أمه، فأمرت جواريها فضربنها (بالقباقيب) حتى ماتت فألقيت من سور القلعة إلى الخندق، ثم ووريت التراب بعد أيام، وأسدل الستار على الملكة العظيمة المجاهدة شجر الدر صاحبة الملك الصالح أم خليل[27].

كانت قوية النفس، لما علمت أنه قد أحيط بها أتلف شيئا كثير من الجواهر النفيسة واللآلئ المثمنة، كسرته في الهاون لا لها ولا لغيرها[28].

كانت خيرة ديِّنة رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البرّ معروفة بها. والذي وقع لها من تملّكها الديار المصرية لم يقع ذلك لامرأة قبلها ولا بعدها في الإسلام[29].

---

[25]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 146.
[26]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 147.
[27]. باكثير: **المصدر نفسه**، ص 164.
[28]. أبو الفداء ابن كثير: **المصدر نفسه**، ص 199.
[29]. ابن تغريالأتابكي: **المصدر نفسه**، ص 379.

الخاتمة

حظيت المرأة باهتمام الكثير من الكتاب والأدباء على اختلاف اتجاهاتهم وتعدد اهتماماتهم ومشاربهم، وشغلت حيزا بارزا في نتاجهم الأدبي. والأديب علي أحمد باكثير يُعدُّ من رواد الرواية التاريخية الإسلامية في الأدب العربي المعاصر، حيث نراه يعتمد في كل رواياته على التاريخ الإسلامي والشخصيات الإسلامية، إذ أنه نشأ نشأة إسلامية وجعل فكره الإسلامي فلسفة لأدبه ومنبرا لحياته، ونرى قدرته على إبراز الفكر الإسلامي والقيم الإسلامية من خلال روايته "وا إسلاماه" في صورة أدبية شيقة وبأسلوب جذاب، لقد أبدع المؤلف في وصف الجهاد وأثره وما ينتظر المجاهد من أجر عظيم عند الله. استخدم باكثير في هذه الرواية كل عناصر السرد وخاصة المرأة التي احتلت حيزا كبيرا وحظا وافرا. فالرواية "وا إسلاماه" تلعب دورا محوريا، ولعلي أحمد باكثير مهارة خاصة في توظيف الحوار مستخدما اللغة العربية الفصحى في أحداث وشخصيات روايته، وعرض لنا صورة رائعة للحب العذري والمرأة المسلمة المجاهدة الإيجابية. فقد صوّر الكاتب من خلال روايته المرأة في أشكال مختلفة ومتنوعة حيث أعطت صورة للحبيبة الوفية والزوجة الصالحة وتضحيتها والمرأة الحاكمة.

..... ❖❖❖❖❖ .....

المصادر والمراجع

1. أبو الفداء ابن كثير، الحافظ إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، الجزء 13، الطبعة السابعة، 1988م).
2. البابكري، أبو بكر: روايات علي أحمد باكثير التاريخية مصادرها.. نسيجها الفني.. إسقاطاتها، (موقع الأديب علي أحمد باكثير).
3. د. سرباز، حسن: الاتجاه الإسلامي في روايات علي أحمد باكثير التاريخية (موقع الأديب علي أحمد باكثير، من أبحاث مؤتمر "علي أحمد باكثير ومكانته الأدبية"، القاهرة، 2010).
4. الدكتور مفقوده، صالح: المرأة في الرواية الجزائرية، (الجزائر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الطبعة الثانية، 2009م).
5. د. الزبيدي، عبد الحكيم: الكاتب الذي أنصف المرأة، (دائرة الثقافة والإعلام – حكومة الشارقة: مجلة الرافد، العدد 6، يونيو 2010م).
6. د. الزبيدي، عبد الحكيم: باكثير في سطور، (مجلة الرافد، يونيو 2010م، العدد 6).
7. باكثير، علي أحمد: وا إسلاماه، (القاهرة: مكتبة مصر، د. ت).
8. الدكتور حميد، محمد أبو بكر: علي أحمد باكثير من أحلام حضرموت إلى هموم القاهرة، (الرياض: دار المعراج الدولية للنشر، الطبعة الأولى، 1997م).
9. د. حميد، محمد أبو بكر: علي أحمد باكثير النشأة الأدبية في حضر موت، (الأدب الإسلامي، 2001م، العدد 29، المجلد 8).
10. غوري، محمد علي: علي أحمد باكثير رائد الرواية التاريخية الإسلامية في الأدب العربي: وا إسلاماه نموذجا (موقع الأديب علي أحمد باكثير، من أبحاث مؤتمر مئوية باكثير بالقاهرة 2010).
11. ابن تغري، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، المجلد السادس، 1936م).

..... ❖❖❖❖❖ .....